الفصل الثالث

الواقع الاجتماعى الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية

تمهيد :

لاريب فى أن الإحتلال الإنجليزى لمصر فى ١٨٨٢ كان له أثره السيىء فى الحياة الاجتماعية المصرية، فمنذ أن وطئت أقدام الانجليز البلاد أهملوا الإصلاح الاجتماعى بإطلاق، ولم ينفقوا من الإيرادات العامة شيئا على هذا الإصلاح فتدهورت حالة الأمة الاجتماعية تدهوراً بالغًا، والإحتلال هو المسئول من الوجهة الاجتماعية عن سوء حالة طبقات الشعب، وأترك للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى يصف لنا واقع وحال هذه الطبقات فيقول:(١)

إن الطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين قد اتجهت فى مجموعها وجهة الولاء للإحتلال، والحياة النفعية فخلت الحياة الاجتماعية من المفاخر والعظائم لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صغار فى النفوس، يتنافر مع كل عظيم ونبيل، واجتمع إلى ذلك الإسراف فى الترف والبذخ والرغبة فى الظهور الكاذب، واقتباس مفاسد المدنية الغربية دون محاسنها فصارت هذه في مجموعها عنوان الإنحلال فى الوطنية والأخلاق، وأداة للاستغلال الأجنبى فى البلاد، وتقطعت الروابط بين هذه الطبقات لانصراف أفرادها إلى المنافع الشخصية دون الحياة القومية..

أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم فهذه أيضا إنصرفت إلى الحياة النفعية تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة، ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ، فلم يعد فى البلاد من جهودها أية فائدة. والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال، وهم أغلبية الشعب، قد ساءت حالتهم فى عهد الاحتلال، فالاحتلال هو السبب الأساسى فى انتشار الجهل والأمية بينهم طوال أربعين سنة ونيف، فهو بسياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية، وساءت حالتهم المادية والمعنوية، وفقدوا مع الزمن أخلاق الصدق والوفاء وحب الغير والبر والإحسان، وأهمل

---

(١) عبد الرحمن الرافعى. مصر والسودان. فى أوائل عهد الاحتلال، القاهرة، دار المعارف. الطبقة الرابعة، ١٩٨٣ ص١٩٤ د١٩

الإحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض الحسية والمعنوية.(١)

ويشبه الزعيم الوطنى مصطفى كامل المصائب التى حلت بالمجتمع المصرى من جانب الإحتلال الإنجليزى بالصواعق فكتب فى جريدة الأهرام فى ٤ مارس ١٨٩٥ تحت عنوان «صواعق الإحتلال» يقول: لله من صواعق تصب علينا بغير حساب، ومصائب نُرمى بها بلا أسباب، وبلايا تتدارك قطرات السحاب ورزايا تتصدع بها القلوب والألباب، حتى أصبحنا نتقلب بين أنياب هذا الشر وأظفار ذلك السوء، ولانعرف من الأيام غير ظلماتها، ولا من الحوادث إلا مزعجاتها كل ذلك على أيدى فئة جاءت البلاد بحجة الإصلاح، فأفسدت ما شاءت وغيرت وبدلت ما استطاعت إجابة لداعى هواها، ورغبة فى بلوغ مناها، وإذا سألتها ما هذه الصواعق التى تصبينها علينا؟ قالت: هى أدوية أدوائكم ومراهم جروحكم فتلقوها بالصبر والسكون، هذا شأنهم معنا شأن القوى مع الضعيف ينتهكون كل حرمة، ويطأون كل عزيز نفيس.(٢)

القيم الوافدة:

ولقد صاحب الإحتلال الأجنبى لمصر انتشار بعض العادات والتقاليد الأوروبية التى كان لها أثرها الفتاك فى المجتمع المصرى، والتى قلد فيها المصريون الأوروبيين تقليداً أعمى باعتبارها تمدنا من التمدن، فعمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة الحياة المادية بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإسلامية التى امتدت أيديهم إليها، ووقعت تحت سلطانهم مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعى إحكاما شديداً، واستعانوا بدهائهم السياسى وسلطانهم العسكرى حتى تم لهم ما أرادوا.. وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات

(١) لمزيد من التفاصيل حول أمراض المجتمع المصرى فى هذه المرحلة أنظر: لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص١٥٧ وما بعدها.

(٢) راجع بالتفصيل، مصطفى كامل، المقالات، تحقيق يونان رزق مرقص القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ ص ١٥١-١٥٢.

وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم وقصصهم ورواياتهم، وعبثهم ومجونهم وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التى تعج بالإثم وتطفح بالجور في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين، والأغنياء ونوى الرأى فيهم وأهل المكانة والسلطان.(١)

ولاشك أن النظام الاجتماعى للبلاد الأوروبية يختلف اختلافا كبيراً عن النظام الإسلامى، فبين الإسلام وكثير من الأنماط الأوروبية تباين عميق لا سبيل معه إلى لقاء، وخاصة فى أصول الفكر والاعتقاد، وضروب السلوك والأخلاق، وطرائق المعاملات، وهو نفس الفارق بين حياة تنبعث من الإيمان، وحياة تنبعث من الإلحاد، ومع ما يتبع ذلك فى كل نواحى الحياة من سلوك ملتزم بمنهاج الله رب العالمين، وسلوك متمرد على دينه الحق يدعو إلى التحرر من كل التزام إلا ما أشربه هواه وأضاليل قادته.(٢)

والواقع أن الأمة المسلمة كانت تعيش حينئذ وكأنهالا إرادة لها ولا مشيئة، ولايؤبه بقدرها أو يكترث لوجودها فكانت تعيش هدفا للسياط، وحشواً للسجون والمعتقلات وكانت تعيش أداة مسخرة تسخر قواها حتى تُستنفد، وكان الشباب عابثا لاهيا إما بين أحضان الرذائل والشهوات أو بين جدران الملاهى والمواخير، وإما بين أركان العزلة لايشعر بالدنيا ولاتشعر الدنيا به، وإما إمعة يسير مع الدنيا حيث تسير إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء.(٣)

وكانت مصر محيطا متلاطما من المذاهب والأفكار، وأضحت الحضارة الأوروبية تقذف الشرق كل يوم بقذائف جبارة من الأفكار الإلحادية والنظم المنحلة، وكان المجتمع ينحرف شيئا فشيئا، ليلبس ثوبًا فضفاضًا من المجون السافر والفتنة المكشوفة والإباحية المارقة، وأخذت الحياة الأسرية تتقوض تحت ضربات معاول الأوضاع الجديدة، وكانت الصحافة بأقلام كتابها المستغربين تقذف الشعب المستيقظ فى دهشة تحت ضغط معاول الاستعمار ألوانا من الأفكار المستهجنة والإباحية الآثمة وكانت تركيا قد أعلنت خروجها عن جلال الشرق وعزة الإسلام بإلغائها الخلافة وانضوائها تحت

---

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة بين الأمس واليوم، مرجع سابق ص١٣٨.

(٢) أنظر بالتفصيل: عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكرى، والتيارات المعادية للإسلام، القاهرة دار الأنصار الطبعة الأولى، ١٩٧٧ ص ١٤٨.

(٣) محمد عبدالله السمان، الدعوة، العدد (٩٥) السنة الثانية، ٩ ديسمبر ١٩٥٢، ص٣.

لواء الحضارة الغربية، فانتهز بعضهم الفرصة ليكتب طويلا وطويلا عن تفضيل القبعة على الطربوش وحرية المرأة وحرية الفكر، حتى بلغت بهم الجرأة إلى إنكار للسلطة الزمنية للخلافة الإسلامية وأنكر آخر، ما ورد فى القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم عليه السلام.(١)

والحقيقة أنه لا غرابة فى أن يحدث ذلك وأكثر من ذلك على يد الاستعمار فى البلاد الإسلامية، وذلك لأن هناك حقيقة مؤكدة أنه مع كل مخطط سواء أكان سياسيا أم عسكريا أم مخطط هدم أم ضغط أم احتواء أم تصفية كان الغزو الاجتماعى يرافقها ويهدف إلى التأثير على عقيدة المسلمين حسب مناهجهم الاجتماعية، وذلك ليساير المسلمون الأوروبيين فى حياتهم المادية، ولايلتفتوا إلى الحياة الروحية بل يهملونها وتستأثر بهم الفوضى ويتفشى فيهم الفساد، وينقادون إلى شهواتهم وغرائزهم.(٢)

ولقد كان اللورد «كرومر» هو المنوط به مهمة تنفيذ هذا المنهج الاجتماعى الغربى، وكان مدركا لطبيعة المصريين تمام الإدراك وعلاقتهم بدينهم الإسلامى، ومن خلال عبارة له يتبين لنا مدى هذا الإدراك وتنكشف الأهداف التى كان يرمى إليها إذ يقول: «فالمصريون يتمسكون تماما بالإسلام الذي هو أحد الكلمات المرادفة للوطنية فى الشرق والانجليز لايهدفون إلى نشر المسيحية، ولكنهم يريدون نشر حضارة تقوم على أساس «مسيحى» ومن ثم عمد رجال الإحتلال إلى العمل على زيادة عدد المصريين الآخذين بنصيب من الحضارة الأوروبية، وجعلوا لبعضهم مقاما كبيراً فى الدور السياسى الذى تمر به مصر منذ الاحتلال، وإذا استمر المضى فى هذا الطريق أصبح المصرى الأخذ بحضارة أوربا أقل مصرية وأكثر ميلا لأوربا، إذ يصبح المصريون بهذا الفيضان المتدفق من الحضارة الأوربية أقل إسلاما، وهم فى الوقت نفسه لم يحصلوا بعد على العمود الفقرى فى الحضارة الأوروبية، أو كما يصفهم فى عبارة قصيرة «بأنهم مسلمون وليست فيهم خواص إسلامية وأوربيون وليست فيهم خواص أوربية».(٣)

---

(١) أنور الجندى، الإخوان المسلمون، اليومية، العدد (٧٢٧)، ١٤ سبتمبر ١٩٤٨، ص٦.

(٢) أنظر بالتفصيل، محمود شاكر، العالم الإسلامى، ومحاولة السيطرة عليه بيروت، المكتب الإسلامى، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤، ص١١٧ وما بعدها.

(٣) أنظر بالتفصيل: سامى عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٨ ص ٣٠٠ وما بعدها.

وبالفعل عاد بعض المبعوثين لأوربا، ممتلئين غروراً بالحضارة الأوربية، ينفرون من أوطانهم ومن دينهم نفرة عجيبة، ويطالبون بتلوين الحياة المصرية باللون الغربى الخالص ويذيعون فى الناس أن الشرق لايَصلُح أمة إلا إذا أخذ الحضارة الأوربية كاملة غير منقوصة شرها وخيرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب وكان الحديث عن الإسلام، يلقى في ذلك الوقت سخرية وإعراضاً، فأين الناس من الفكرة الإسلامية فى هذا البحر المتلاحم الذاخر من الشهوات المكشوفة والنزوات المغرقة، والإباحية البالغة، والاستهتار الماجن.. فهذه الأوضاع ولاشك -أخذت من الناس الألباب، ودفعتهم إلى ميدان الحياة المادية دفعاً حتى لم تعد الدنيا فى نظرهم إلا مالاً يجمع وامرأة تجلب وخمراً تشرب وانطلقت قافلة الحياة إلى هذا الشر تندفع فيه وتعب منه.(١)

ويصف أيضا أحد الكتاب حالة البلاد خلال تلك الفترة فيقول: بأن الملاهى الليلية فى القاهرة كانت غاصة ببائعات الهوى اللواتى جاءت بهن الحرب العالمية الأولى من مختلف بلاد البحر الأبيض المتوسط للترفيه عن أفراد القوات البريطانية المحاربة، وكانت هذه الملاهى الليلية تكاد تكون أرضا غير مصرية من نهايات ١٩١٤ إلى نهاية ١٩١٨، وفجأة فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ زحف أغنياء الريف المصرى على هذه الملاهى فأجلوا عنها القوات البريطانية.. فلم تعد بائعة الهوى تحتفى بجندى الاحتلال، فقد احتل مكانه فلاح مصرى باع أقطانه بعشرين ريالا للقنطار الواحد، بعد أن كان ثمن القنطار من قبل لايزيد على سبعة ريالات.. وذاعت قصص «العمدة» الذى كان يشعل السيجارة فى هذه الملاهى بورقة من ذات المائة جنيه، وذاعت فى الوقت نفسه قصص العذاب التى كان يقصها الكادحون من الفلاحين وأعمال العائدين من المعسكرات البريطانية التى سيقوا إليها قهراً..(٢)

---

(١) أنور الجندى، الإخوان المسلمون، اليومية، العدد (٧٢٧)، ١٤ سبتمبر ١٩٤٨، صـ ٦.

(٢) حافظ محمود، أسرار الماضى، من ١٩٠٧ إلى ١٩٥٢ فى السياسة الوطنية، مجلة روز اليوسف العدد الخامس، ١٩٧٣، ص١٠، ١١.

صور من البلاء الاجتماعى:

وهذه الصورة الأخرى التى كان عليها المجتمع المصرى فى ظل الاحتلال الإنجليزى يصفها الشيخ الغزالى بقوله: ولاتزال هذه الصورة تلاحقنى، وتنشر ظلا من الكآبة على نفسى صورة الخواجة، وهو يتنقل بين ربوع الريف، مراقبا أمواله التى أخرجها بالربا، ومراقبا ما يضمن هذه الأموال من أطيان وأعيان، وليس ذلك ما آلمنى، وإنما الذى ضقت به أشد الضيق منظر «على» خادم الخواجة، وهو يتبع سيده الأجنبى هنا وهناك وكان آخر مناظر هذه الخدمة المهينة منظر «الخواجة» السيد، وهو يمتطى حماره الفاره، يسير عليه بهمة وقوة، ومن خلفهما «على» الخادم يجرى حافي القدمين، غارق الرأس فى لبدته القذرة، لاهث الأنفاس من ملاحقته للحمار النشيط، ولصاحبه المستعلى المنتفخ المنطلق!![1]

وإذا تركنا هذه الصورة الهزلية التى كان عليها نفر من الفلاحين، لنقف على صورة أخرى يذل فيها المصرى بشكل قهرى لتحقيق مآرب الاحتلال وتتمثل فى قيام الإنجليز بأعمال وحشية فى البلاد إبان الحرب العالمية الأولى، حيث قاموا بجمع الأهالى كرها، وحشدهم قسرا لخدمة السلطة العسكرية وتسخير الرديف فى أشق الأعمال، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية بأبخس الأثمان، وجمع الدواب بأقل الأسعار، وساقت السلطة العسكرية البريطانية بالسياط وفى مهانة ما يربو على المليون من العمال من أهل الريف، ولم ترحم فى ذلك شابا ضعيفًا، أو شيخا كبيرًا، وأرسلتهم للعمل بالإكراه فى خدمة جيشها بسيناء والعراق وفلسطين والدردنيل باسم المتطوعين، وماهم بمتطوعين، وجمعت من رديف الجيش حوالى ١٢ ألفا أطلقت عليهم اسم «أنفار السلطة» وسخرتهم فى تعبيد الطرق بسيناء ورصفها بالمكدام، وإعدادها لسير المركبات والمدرعات ومد خطوط السكك الحديدية، وحفر الخنادق، والآبار، وبناء الحصون والاستحكامات إلى غير ذلك من أشق الأعمال، فمات منهم الآلاف من قسوة المعاملة وسوء التغذية، وفتك المرض، واستولت السلطة العسكرية على محاصيل البلاد من قمح وشعير وذرة وأرز وعدس.. الخ كما جمعت الخيل والبغال والجمال والحمير، واشترتها قهراً بأبخس الأثمان فعم الكساد البلاد وذاق الأهالى مرارة الجوع والحرمان.[2]

---

(١) محمد الغزالى، فى موكب الدعوة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، الطبعة الرابعة ١٩٦٥، ص٢٨٨.

(٢) عبد العزيز على الثائر الصامت، مرجع سابق، ص٥٠.

ولاشك أن هذه الممارسات من قبل الاحتلال الإنجليزى تحمل فى طياتها كل معانى الإذلال والاستعباد، والحقيقة أنه لا فرق عند الاستعمار بين التغيير الاجتماعى والإذلال الاجتماعى فكلا الأمرين مطلوب ويحقق له أهدافه التى يسعى إليها من السيطرة والهيمنة على الشعوب، والمستعمر لايستطيع أن يحقق إذلال واستعباد المستعمرين إلا بعد أن يفرض عليهم منهجه الاجتماعى، وبعد أن يُحدث لهم عملية «التحلل الاجتماعى» فينسلخ المستْعمَر من قيمه، ومُثله ومبادئه وعقائده شيئا فشيئا فإذا ما تحقق ذلك أولا للمستعمِر تحقق له بالتبعية كل شىء بعد ذلك من إذلال واستبعاد واستغلال للشعوب المستعمرة، لأن الإنسان إنما تحركه وتسيره مبادىء وقيم وعقائد فإذا فقد هذه الأشياء أو ضعفت لديه، فقد فَقَدَ التحكم فى نفسه، وصار يلعب به ويحركه الاخرون كيفما يشاءون وأينما يريدون وهذا ما حدث فى مصر، ومع جميع الشعوب المستعمرة.(١)

والواقع أن هذا الوضع المتردى الذى أحدثه الاحتلال لم يكن يرضى عنه الكثير من الوطنيين الأحرار وعلماء الدين، فراحوا يدافعون عن الشعب المصرى، وينبهونه إلى خطورة التأثر بمظاهر الحياة الأوروبية، ويدعونه إلى التمسك بأهداب الدين والابتعاد عن الوقوع فى حبائل الخمارات والبارات والربا وغير ذلك من العادات الرذيلة التى صاحبت التغلغل الأجنبى فى الحياة المصرية كشرب الخمر، ولعب الميسر، والتحلل الجنسى، والسفه فى الانفاق.. الخ.(٢)

أخطر الآفات الاجتماعية:

ويحدد أحد الباحثين أهم الآفات الاجتماعية التى انتشرت فى مصر مع الأوروبيين، واستشرت فى ظلال الاحتلال البريطانى واستبسلت الصحافة الإسلامية فى حربها وهى:-

١ - الخمر:

لم تكن الخمر من الآفات الاجتماعية المعروفة والمنتشرة فى مصر قبل الاحتلال

(١) لمزيد من التفاصيل حول ماهية التغيير الاجتماعية وأساليبه وصلته بالتغيير السياسى أنظر: على جريشة ومحمد شريف الزيبق، أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى، القاهرة، دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩، ص٥٥-٥٦.

(٢) هذا لايعنى أنه لم يكن هناك قوى داخل مصر تحبذ صنيع الاحتلال وتدعو إليه، وتدافع عنه كالمجلات والصحف المولية للاحتلال مثل «المقطم» «والمقتطف» انظر: سامى عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، مرجع سابق ص ٢٠٣ وما بعدها.

الانجليزى لها، ولكن المصريين عرفوا الخمور وانتشرت بينهم انتشاراً بعد الاحتلال، ووفود الأجانب بأعداد كبيرة إلى مصر، ويصف الشيخ رشيد رضا فى مجلته «المنار» الحانات حينئذ فيقول: إذا تجولت فى شوارع القاهرة وأسواقها فلا يغيب عن نظرك مرأى الحانات دقيقة واحدة، حتى يخيل للجائل أن هذه الحانات تزيد على حاجة السكان ولو كانوا كلهم من السكارى، وأنها تمثل لعينى ناظرها كأنها ثكنات، عساكرها القوارير المصفوفة المرتبة. وقوادها الغيد والغادات من الطليان وسائر أصناف الإفرنج.(١)

وبذلك استبيحت الخمر بسلطة القانون وزعم المدنية فلا يعاقب شاربها ولا يصادر بائعها، ولايضرب على أيدى المدمنين الذين كثر سوادهم، وعظمت جرائمهم، وفسدت عقولهم، واعتلت جسومهم، وذهبت أموالهم، وتشرد أبناؤهم وأيمت زوجاتهم ورزئت الأمة والملة بهم، وشقيت بحياتهم الأيام والسنون فذاقت الأمة وبال أمرها لأنها لم تسمع قوله تعالى ﴿**يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾(٢) فانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن، وصارت محلات المسكرات تفتح علَنًا فى بعض القرى بين الفلاحين، وفى الأحياء الآهلة بالعمال فى المدن برعاية الحكومة وحمايتها، وفي كنف الامتيازات الأجنبية، ففتكت بهم فتكا ذريعًا وأفسدت عليها صحتهم ودينهم وأخلاقهم ونقصت قدرتهم على العمل والانتاج. وساعدت على زيادة حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام.(٣)

٢- الميسر:

زاد عدد دور القمار فى عهد الاحتلال الانجليزى زيادة كبيرة، ففى ثمانى سنوات زاد إلى ٧٤٧٥ داراً للعب وكانت قبل ذلك ٣١٦ داراً فقط أى أن الزيادة بلغت ٧١٥٩ داراً فى القاهرة وحدها(٤)

---

(١) أنظر بالتفصيل، سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، فى القرن التاسع عشر، القاهرة، دار الوفاء الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص٢٣٠ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة الآية ٩٠.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال، مرجع سابق ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٤) عبد اللطيف حمزة: مستقبل الصحافة فى مصر، ط١، ص١٤٢، ١٤٣.

ومعلوم أن الميسر فى الأصل القمار، وكل قمار ميسر محرم بالنص إلا ما أباحه الشرع من المراهنة فى السباق والرماية، والميسر مثار للعداوة والبغضاء أيضا ولكن بين المتقامرين، فإن تعداهم فإلى الشامتين والعائبين، ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين، وإن المقامر ليفرط فى حقوق الوالدين والزوج والولد حتى يوشك أن يمقته كل أحد.(١)

ولاشك أن تفشى هذا الوباء فى المجتمع المصرى حينئذ أدى إلى ضعفه وتدهوره، وقوة تحكم الاحتلال فيه. كل ذلك جعل الصحف الإسلامية تندد بهذه الرذيلة وتحذر المصريين من الوقوع فى شراكها وتكتب عن ممارسات الانجليز بأنهم «تسوروا بلادنا، ونصبوا لنا شباكا ليستنزفوا ماء الثروة، ويمتصوا عروق الحياة، ويشرح رشيد رضا الآثار المخربة للقمار والتى استشرت بانتقال عدواه من الرجال إلى النساء اللاتى يقلدنهم فى كل ما يفعلونه، فكيف بالأبناء الذين يتولدون من هذه الأصول الخبيثة؟! كيف يستطيع مثل هؤلاء النساء أن يقمن بإدارة المنزل وتربية الأبناء، وهن اللائى شببن عن الطوق، وتشبثن بأذيال من التمدن الأوربى مسحوبة على أرض قذرة تجرّ من تعلق بها عليها حتى يكون عبرة للناظرين؟!.(٢)

٣- البغاء:

وقد زاد زيادة كبيرة فى عهد الإحتلال أيضا، وكثرت المحلات المخصصة له وخاصة فى القاهرة والاسكندرية، فكنت أينما ذهبتتنجد دور الدعارة الأوروبية التي عمل الانجليز على تشجيع وجودها وانتشارها.(٣)

وبذلك صار البغاء علنيا أباحته الحكومة وأعانت عليه، ورضيت به الأمة التى تنتسب إلى الإسلام وتستتر بأثوابه، كأن الحياء لم يكن من الإيمان، ففقد الشباب الحياء والعفة وكسبت البلاد المهانة والمذلة، وظهر الفساد فى الأرض وتلطخ بقذارته وجه الفضيلة وحل عاره فى الشوارع الآمنة، والبيوتات الطاهرة، والأعراف الشريفة، وعم خطره حتى

---

(١) أنظر بالتفصيل، رشيد رضا، تفسير المنار، جـ٧، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٣، ص٥١-٥٣.

(٢) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٣) السابق نفسه، ص٢٣٥.

ما يكاد يخلو منه شارع. ولا تأمن مخازيه ناحية، وتردت فى هوته السحيقة هذه الأمة المسكينة البائسة التى ضلت سبيل الهداية وسلكت طريق الغواية فاختلطت عليها السبل وتشعبت بها المناحى فغربت شمس سعادتها.(١)

وأنقل هنا ما ذكره الأديب الكبير يحيى حقى عن السلبيات التى تفشت فى مجتمعنا على يد هذا المحتل الغاصب فيذكر الأديب أنه كان يعمل فى بداية حياته فى منفلوط إحدى مدن الصعيد واحتاجوا إلى مجموعة من النساء يزغردن عندما يمر القطار «بالملك» كالعادة، فلم يتردد مأمور المركز في أن يستدعى «مومسات» مدينة منفلوط «ولأول مرة فى تاريخ هؤلاء المومسات» أصبح كلام المركز لهن رجاءً لا زجراً!! ثم يقول: فى ذلك اليوم رأيت سرب المومسات يسير فى الطريق إلى المحطة على وجه كل منهن ابتسامة جمعت بين فرحة الخروج للنزهة فى يوم عطلة رسمية من وجع الشغل، وبين الزهو بمكانة جاءهم الإقرار بها على غير انتظار!! ويستطرد كاتبنا الكبير فيقول:

ولم تكن نقطة «المومسات» فى منفلوط ذات شهرة مستفيضة، ولا أظن لها أصلا عريقا وأقدميه تاريخية مثل نقطة المومسات فى «بهجورة» فى الصعيد الجوانى!!(٢) وعن صورة أخرى يقول: ويقودنا الحديث عن نقطة «المومسات» إلى الخمارة، وكان المفروض هو العكس، لم تخل منفلوط من خمارة تقع وسط البندر، يملكها أجنبى. كنا فى أواخر عهد لايزال يُعد فيه ارتياد الخمارة فضيحة علنية.. وكانت خمارة البلد تثير فى نفسى تأملات عن تطور مجتمعنا، لا أظن أن البشرية أنبتت فى سجلها الطويل جيلا لايعرف نوعا من المسكرات، ولكن على كثرة ما قرأت فى التاريخ قبل الإسلام لم أعثر على حملة عنيفة تحارب الخمر.. ثم جاء الإسلام فأنزل بها ضربة قاضية، إذ جعلها إثما مجلبا لسُخْط الله فى الدنيا بقلة البركة والإنذار بالفقر، وفى الآخرة بنار جهنم، أجيالنا القريبة السابقة، كانت تؤمن أن الخمر أم الكبائر، إذا ذاع عن رجل أنه يشربها سقطت كرامته ورفضت شهادته وربما طلقت منه امرأته، فلا عجب أن لم يجرؤ واحد من أهل

---

(١) عبد الرحمن الساعاتى «جريدة الإخوان المسلمين» الأسبوعية، العدد (١٩) جمادى الآخر ١٣٥٣، السنة الثانية ص٢٨.

(٢) يحيى حقى، خليها على الله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٢٣٣.

البلد على فتح خمارة، ثم استشرت الامتيازات الأجنبية وتبعها الاحتلال البريطانى فتمشت الخمامير من العواصم إلى مدننا الصغيرة، وقرانا الكبيرة يملكها أجانب، وتجذب الناس أيضا بإعداد وجبات نظيفة وقهوة طيبة وأنس وسفور زوجة أو إبنة وانقلب صاحبها أغلب الأمر إلى مراب يعرف أسرار العائلات، يقرض بخراب البيوت، الفلاح المعنور عند الدودة أو الجمع، والأعيان غير المعنورين ليمد لهم حبل الفساد وتخرج أملاكهم من أيديهم له أو لنفر من شيعته!![1]

ولاشك أن هذه الوقائع تعكس مدى التخريب الذى أحدثه الأجانب في البلاد، الأمر الذى يدفع كل العقلاء والغيورين على العرض والشرف والوطن أن يثوروا فى وجه الاحتلال البغيض.

٤- السفه والإسراف والربا:

ولاشك أن هذه الرذيلة موجودة فى كل الأمم، وفي كل الدول، وكانت بمصر قبل الاحتلال الانجليزى، إلا أنه بقدوم الاحتلال تفشت هذه الظاهرة وانتشرت بين أوساط المجتمع، فهاجمت الصحافة الإسلامية هذه العادات المهلكة التى ازدادت بين المصريين، إذ تكالب الجميع على المحسنات الغربية يشتريها بنفيس الذهب، وقد أماتوا بهذا الاسراف الاقتصاد والشرف، وماتت معه ثروة كثير من أصحاب الحرف.. والمالك الذى كان يعيش فى رغد صار الآن» يزرع المائة فدان، ولا تراه إلا مقترضا[2]وبيت الصحافة الإسلامية المنهج الإسلامى الذى يعالج هذه الأمراض، وهو الاعتدال فى الانفاق، انطلاقا من قوله تعالى ﴿ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾[3] وقوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾.[4]

وجاء الربا ليحكم الدائرة الشيطانية التى جعل الغرب المجتمع المصرى يدور فيها، فإن الذى يدمن الخمر والميسر وينجرف إلى البغاء وينفق فى سرف وسفه على الملذات،

(١) يحيى حقى، السابق نفسه، ص٢٤١- ٢٤٢.

(٢) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٣) سورة الإسراء الآية (٢٩).

(٤) سورة الفرقان، الآية (٦٧).

والمظاهر لابد أن يمد يده ليستدين «ووجد المرابون فى هذا الضعف، ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغلون في مختلف الأوساط فى العواصم والبنادر والقرى، فكبلوا الأهالى بالديون، مما أفضى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم وانتشار الفقر والبؤس فى الطبقات الفقيرة والمتوسطة فهذا ما كانت تسير إليه حالة المجتمع المصرى، ويتضح من خلال هذه الفترة مدى الدور الذى قامت به الصحافة الإسلامية للمحافظة على الأصالة والأخلاق الإسلامية فى مواجهة هذا الطوفان العنيف القادم من الغرب في هذه الفترة من التاريخ المصرى».(١)

وموقف الصحافة الإسلامية إزاء هذه الموجات التغريبية، يعتبر موقفًا أصيلا، ينم عن يقظة مبكرة لخطر هذا العدوان الفكرى وذلك الغزو الثقافى والإذلال الاجتماعى الذى كان يقع على كاهل المواطن المصرى المسالم من قبل محتليه ومغتصبيه الذين بيتوا النية على ضرب هذه الأمة فى أعز ما تملك من قيم ومبادىء وأخلاق وعقائد.

وتمر الأيام والسنون والاحتلال على صدر المصريين يرميهم كل يوم بسمومه كما رماهم من قبل بسهامه، وكان اللورد «كرومر» المعتمد البريطانى فى مصر ١٨٨٣م إلى ١٩٠٧م رجلا متعصبًا نال المصريون بسببه ومن ورائه الكثير من العنت والاضطهاد إذ إن سياسته كانت تتصف بالشدة والعنف والمكر والخداع معًا، والحدث الذى تتجسد فيه شخصية كرومر بوضوح حادثة دنشواى، فقد رأى كرومر أمام اشتداد واتساع نفوذ الحركة الوطنية ضرورة أن يسلك سبيلا إرهابيًا يخضع به هذه الحركة، فانتهز إشاعة اعتداء بعض الفلاحين على بعض الضباط البريطانيين فى دنشواى من قرى المنوفية، ورأى أن الوقت قد حان لينفذ ما عزم عليه من شنق الفلاحين الأبرياء وسجن عدد آخر.(٢)

فهذه الحادثة مثال فقط لسياسة العنف والقسوة للاحتلال والتى تتمثل فى شخص كرومر وأذكر مثالا يبين الجانب الآخر من شخصية كرومر، وهو جانب المكر والخداع، وذلك عندماقام باختيار سعد زغلول وزيراً للمعارف فى أعقاب حادثة دنشواى وذلك

---

(١) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٣٨

(٢) زكريا سليمان بيومى، الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧- ١٩٥٣، الفاروقية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨١، ط١، ص٣٦ مع الأخذ فى الاعتبار أن اعتداء الفلاحين فيه نظر

للتغلب على المشاكل الثلاث الرئيسية التى تواجهه فى مصر وهى «الحزب الوطنى» والجرائد الوطنية والجامعة الإسلامية، ولامتصاص غضب الجماهير بسبب أفعاله الشنيعة وجرائمه[1] وكان الاحتلال يمارس هذه الأعمال الوحشية ضد الفلاحين الذين لا حول لهم ولا طول إذ أن الريف المصرى وقتئذ متخلف، وكان الفلاح فيه كمًا مهملاً، فلم تكن القرية حينئذ تحظى بشىء اطلاقا مما تتميز به المدينة من بعض الاصلاحات والمشروعات العمرانية والثقافية والاجتماعية والصحية على قلتها، ولاشك أن مرد تلك الصورة المحزنة والمخزية. فضلا عن التخلف العام فى الريف والمدن للسياسة الجائرة التى انتهجها المحتل، وساعده فيها عملاؤه منذ أن وطئت أقدامه المدنسة أرض الوطن الطاهرة.[2]

ويأتى عام ١٩١٤، عام الحرب العالمية الأولى، وتدخل انجلترا الحرب، ويعيش الشعب المصرى حالة من القلق والاضطراب بسبب الحرب، وانجلترا تبكى وتستبكى على الحرية المسلوبة والإنسانية المعذبة والحرمات المنتهكة والعهود المنقوضة، وترمى الألمان بالوحشية وتنادى بوجوب صد اعتدائهم، وتغرر انجلترا بهذه الأغنية المعسولة بالشعوب المستضعفة فى الشرق وأعطتهم الوعود والعهود بالاعتراف بالاستقلال فتأمن بذلك جانبها، بل ضمنت مساعدتها وجذبتها إليها تحارب فى صفها ضد الأتراك والألمان.

ولكن الذى حدث أن حكمت انجلترا البلاد طول مدة الحرب بالحديد والنار فلا سلطان إلا سلطانها العسكرى، ولا قانون إلا الأحكام العرفية، فألجمت الأفواه وحطمت الأقلام، وصادرت الصحف، وأغلقت الأندية، ونفت واعتقلت رجالا ممن تخشى بأسهم، وبثت جواسيسها فى كل ناحية، وفرضت رقابتها على كل شىء، ووضعت يدها على كل مرافق القطر وحولته إلى ميدان قتال، واستولت على كل ما يملك الفلاح من مال وغلال، وجمعت ثروة الوطن جميعا ورصدتها لجيوشها فى ميدان القتال، وما إن انتهت الحرب وانتصرت فيها انجلترا، فعادت إلى طبيعتها، وتناست وعودها المعسولة،

(١) زكريا سليمان بيومى المرجع السابق ص١٥٤.

(٢) عبد العزيز على الثائر الصامت، مرجع سابق، ص٥٣ . ٥٤.

وتجاهلت تلك الحريات المسلوبة والإنسانية المعذبة التى ملأت الدنيا صُراخا من أجلها، وأنها ما دخلت الحرب إلا للدفاع عنها وصيانتها.(١)

وهكذا تمارس انجلترا هوايتها فى خداع الشعب المصرى، فتنتهى الحرب ١٩١٨م وتنتهى معها وعود وعهود انجلترا لمصر بالاستقلال، ويشعر المصريون بخيبة الأمل، ويثور الشعب ثورته فى ١٩١٩م لأسباب عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وإن غلب عليها الطابع السياسى كما يؤكد ذلك المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى،(٢) ولاشك أن الثورة كان لها أثرها الواضح فى الناحية الاجتماعية إذ أنها حركت الشعب من حالة الركون والخمود التى كانت قد حلت به خاصة بين الشباب والعمال، فأقبل الشباب على الرياضة وتأليف الأندية والجماعات وفرق الكشافة، وأقبل العمال على تأسيس النقاباتوالجمعيات(٣).

فئات المجتمع المصرى:

ولقد بلغ تعداد مصر السكانى عام ١٩١٩، اثنى عشر مليونا، وهو عدد يزيد على ضعف العدد الذى كانت عليه فى بدء الاحتلال البريطانى(٤)، وكان لثورة ١٩١٩ أثر واضح على الواقع الاجتماعى المصرى، إذ أسهمت الثورة فى تطور النهضة الاجتماعية، فأخذت عناصر المجتمع، تحت تأثيرها، تسلك مرحلة جديدة من مراحل العمل والنهوض، وكان للثورة أيضا أثر ملموس فى النهضة التعاونية والعمالية، بعد أن ركدت الحركة التعاونية خلال الحرب العالمية الأولى، ولكنها بعثت بعثا جديداً فى أعقاب ثورة ١٩١٩، فازدادت جمعياتها، واتجهت أفكار المتعاونين وعزائمهم إلى استئناف نشاطهم، وكذلك نشطت الحركة العمالية خلال الثورة وفى أعقابها، فازداد شعور

---

(١) عبد العزيز على، السابق نفسه، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) أنظر بالتفصيل عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٨، ص٤٠ وما بعدها.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص٦٤.

(٤) جاك بيرك، مصر الإمبريالية والثورة. ترجمة يونس شاهين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، صـ ٢٦.

العمال بالتضامن لتحسين حالتهم، والمطالبة بحقوقهم، وترقية شئونهم، ومن هنا، فإن روح الثورة قد طافت بالمجتمع على اختلاف طبقاته وبيئاته واستثارت فيها عوامل الوعى والتقدم(١).

وكان المجتمع المصرى حينئذ يتكون من فئات ثلاث: **الفئة لأولى**: فئة الفلاحين والعمال الزراعيين وعمال الورش وما إليها، وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الشعب، وكان منهم نسبة ٧٠٪ لا يملكون إلا ١٣٪ من الأرض الزراعية، ومتوسط ما يملكه الفرد منهم خمسة قراريط، منهم مليون عامل متجول لا يملك شيئا، وكان هؤلاء يعانون من البؤس والأمراض والجهل والاستغلال، مما يدل على فساد النظام الاجتماعى الذى كان قائما. وكذلك بروز الطبقية، وانعدام العدالة الاجتماعية(٢).

الفئة الثانية: كبار الملاك الزراعيين، وأصحاب العقارات فى المدن، ففى الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٥٢، كان ٪ من إجمالى الملاك يملكون ما بين ٩ ,٣٣٪، و٢ ,٣٥٪ من الأرض الزراعية، عملوا فيها على زيادة ثروتهم بشتى الطرق، وكانت هذه الملكيات الكبيرة أساس سلطتهم السياسية، وكان كل القادة الحزبيين والسياسيين عموما ينتمون إلى هذه الفئة، التى تمتعت بأشياء كثيرة. أما **الفئة الثالثة**: فهى فئة الموظفين من المهنين والمثقفين والطلاب(٣).

وإذا قلنا بأن النهضة الاجتماعية فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى كانت من أسباب الثورة فى ١٩١٩، فإن الثورة ذاتها كان لها أثرها فى تطور هذه النهضة، وازدياد عناصر النشاط فيها، إذ أخذت طبقات المجتمع تحت تأثير الثورة تسلك مرحلة جديدة من مراحل العمل والنهوض، وأول ظاهرة لهذا التطور ذيوع الروح الرياضية فى الشباب وغير الشباب، وكانت من قبل محصورة فى أضيق دائرة، فبدأ الشباب يؤلفون الجماعات والنوادى الرياضية، وتألفت فرق الكشافة المصرية فى المدن والأقاليم(٤).

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ١٦٩.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ١، مرجع سابق، صـ ٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) رول ماير، الدراسات التاريخية المصرية المعاصرة عن الفترة ١٩٣٦، ١٩٥٢، ترجمة أحمد صادق سعد، دار شهدى للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، صـ ٢٧، ٢٩.

(٤) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ١٦٨.

ومن مظاهر التقدم الاجتماعى مساهمة المرأة المصرية فى الثورة، واشتراكهن بأقلامهن وأفكارهن فى إذكاء الروح الوطنية، وحثهن الرجال على التضحية وتأليفهن المظاهرات والجمعيات واللجان للتعبير عن شعورهن الوطنى، والمساهمة فى تدعيم النهضة الوطنية، وقد استهدفن أحيانا للعنت والمشقة فى سبيل اشتراكهن فى الكفاح(١).

فروح الثورة قد طافت بالمجتمع، على اختلاف طبقاته وبيئاته، واستثارت فيها عوامل الوعى والتقدم، بما أشاعت فى النفوس كافة، من التطلع إلى المثل العليا وتحقيق ما يجيش بها، من أمان وآمال، وظهرت هذه الروح أكثر ما ظهرت فى الطبقات الشعبية، ولا غرو فهى التى احتملت أكبر قسط من أعباء الثورة وتضحياتها، فكان من حقها أن تساهم فى الحياة العامة بأكثر مما كان لها من قبل(٢).

ولكن ظل الاحتلال الإنجليزى رابضًا على أرض مصر، وظلت حركة الشعب المصرى مقيدة بقيوده، إذ لم تحقق الثورة أهدافها الحقيقية، وهى الجلاء والاستقلال، ويظهر حزب الوفد بعد انتهاء الثورة، وتبدأ سلسلة أو مرحلة جديدة من الجهاد والمطالبة بالاستقلال والدفاع عن حقوق الإنسان المصرى، هذه المرحلة تصطبغ بصبغة الوطنية فقط، لا الوطنية الإسلامية التى كان يتبناها الحزب الوطنى، وبذلك يغيب البعد الإسلامى فى الحركة الوطنية التى يتزعمها حزب الوفد، والتى تظهر آثارها فى العديد من القضايا الاجتماعية التى مرت بها الأمة سواء كانت هذه القضايا خاصة بالمرأة أم العمال أم الفلاحين أو غير ذلك من الفئات التى يضمها المجتمع وأكتفى هنا بالتركيز على قضية تحرير المرأة كمثال ونموذج لنقف على قسماتها وظروفها فى ظل الوضع القائم فى البلاد أنذاك، ولم للمرأة من مكانة ودور فى المجتمعات وتطورها أو عكس ذلك.

---

(١) السابق نفسه، صـ ٦٥، ولمزيد من التفاصيل حول دور المرأة فى المشاركة الاجتماعية، والمؤسسات التى أسستها للعمل الاجتماعى أنظر: لطيفة محمد سالم، المرأة المصرية والتغيير الاجتماعى ١٩١٩، ١٩٤٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، صـ ٥١ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ١٦٩.

قضية تحرير المرأة:

لاشك أن قضية تحرير المرأة كانت فى نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين هى المحور الأساسى للناحية الاجتماعية فى الحياة الإسلامية عامة والمصرية بصفة خاصة، وكذلك احتلت هذه القضية مساحة كبيرة فى الصحافة الإسلامية وغيرها من أجل هذا نفرد لقضية الدعوة إلى تحرير المرأة، هذه الصفحات لنقف على جذورها ومعالمها وقسماتها وخطواتها ومراحلها وماهيتها، والنهاية التى انتهت إليها. ومن الحق أن نعترف بأن المسلمين فى العصور الأخيرة فتكت بهم أمية طامسة، وكانت بالنساء أفتك، وغابت عنهم هدايات الله فى تفتيق الألباب، وتنمية الفضائل، وكانت عن النساء أبعد واختفت حقيقة الإنسان وراء تزاويق ومراسم مفتعلة، وكان نصيب النساء بعد هذا الاختفاء أن أمسين أجساداً تُلف بالثياب وتربى وراء الأبواب، فلا علم ولا عمل، ولا رأى ولانصح، ولا عبادة ولاجهاد![1]

ولكن الأمر بدأ يتغير شيئا فشيئا، فالبعثات التى أوفدها «محمد على» إلى أوربا، واطلعت على نظامها وعاداتها أعجبت بالكثير منها، وكان من بين ما نقل وحاز إعجاب البعض تعليم المرأة واشتراكها فى خدمة المجتمع، وتحررها من القيود المفروضة عليها التى كان يمثلها «نظام الحريم التركى»، وكذلك تأثر بعض المفكرين فى مصر بما قرءوا عن نظام الغرب، وعاداته ووضع المرأة فيه، كما ظهرت كتابات تنقد المجتمع المصرى، وتعيب عليه حجاب المرأة، فهب هؤلاء المفكرون ينادون بتحرير المرأة، ويدفعون الشبه عن الحجاب أو يطالبون بالغائه.[2]

وكان رفاعة رافع الطهطاوى أول من نادى بالاهتمام بالمرأة وتحريرها وذلك فى كتابه «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين» ولايخرج كتاب الطهطاوى عن كونه محاولة للعودة إلى المنبع والأصل وهو الإسلام الذى أعطى المرأة حقوقها كاملة وأنزلها منزلة عالية، ونثبت ذلك هنا فى شأن الطهطاوى لأن مسألة تحرير المرأة فى مصر فى القرن التاسع عشر كان لها معنيان مختلفان اتخذ كل معنى منهما فريق من فريقين:

---

(١) أنظر بالتفصيل: محمد الغزالى، سر تأخر العرب والمسلمين، دار الصحوة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢١-٢٥.

(٢) عطية صقر، موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، جـ٢ الحجاب بين التشريع والاجتماع، الدار المصرية للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٠ ص ٢٥١.

المعنى الأول: هو تقليد المرأة المصرية للمرأة الأوربية فى فكرها وسلوكها الاجتماعى، وزيها وما تتمتع به من حقوق نابعة من التقاليد الغربية، وكذلك ما تتمتع به من حرية شخصية قد تصل إلى حد المغالاة.

المعنى الثانى: هو النهوض بالمرأة المصرية لتأخذ دورها الإيجابى فى المجتمع فى إطار الشريعة الإسلامية وذلك بتعليمها وتهذيبها وتثقيفها، ومنحها مالها من حقوق وقيامها بما عليها من واجبات.(١)

ولاشك أن الطهطاوي ومحمد عبده وقاسم أمين ومن سار على دربهم كانوا يطالبون بتحرير المرأة باسم الإسلام لا أن يحرروها من الإسلام ويجعلوها تسير على نمط المرأة الغربية التى تحللت من الكثير من القيم والمبادىء التى تعد من صلب ديننا الإسلامى، وإذا كان الاتجاه الإسلامى المطالب بتحرير المرأة بدأ من الطهطاوى، فإن الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة ظهر على يد محام مصرى يدعى مرقص فهمى عام ١٨٨٤ وذلك فى كتابه «المرأة فى الشرق» حدد فيه خطة الاستعمار فى المطالبة بتحقيق الأغراض التالية:

١- القضاء على الحجاب الإسلامى.

٢- إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها.

٣- تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضى.

٤- منع الزواج بأكثر من واحدة.

٥- إباحة الزواج بين المسلمات وغير المسلمين.(٢)

---

(١) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية فى مصر، مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢) راجع بالتفصيل، محمود محمد الجوهرى ومحمد عبد الحكيم خيال، الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، دار الدعوة، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص٢٤٥ وأيضا سامى الكومى: المرجع السابق، الذى يؤكد أن الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة بدأت بوادره مع الحملة الفرنسية، وظهر فى عصر اسماعيل الذى أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا ومع كثرة عدد العائدين من البعثات فى عصره، وكثرة عدد الأجانب فى مصر ووجد هذا الاتجاه قوة تفرضه على الواقع المصرى بالاحتلال الانجليزى لمصر صـ ٢٣٩.

الصحافة وتحرير المرأة:

ويظهر عدد من الصحف الموالية للاحتلال الانجليزى والتى تنادى بتحرير المرأة على الطريقة التغريبية، وتتصدر مجلة «الراوى»[١] الصحف الداعية للعناية بالمرأة إذ بدأ كاتبها سلسلة من المقالات عن الحب لدى المرأة «فإذا كانت خالية من العمل فارغة الفؤاد من حب زوج يكون كبحًا لجماح شهواتها فلا تأ من غائلة هواجسها». ويعلق الدكتور سامى عزيز على ذلك بقوله: ويبدو على الكاتب التأثر بالآراء الغربية، فإن مناداته بذلك فى المجتمع المصرى العربى فى مثل هذه الآونة -التى كان «الحجاب» سائدًا فيها- تعد نغما نشازًا بالنسبة لمجموع الشعب وطفرة ضخمة من الصعب القيام بها.[٢]

ويبدو أن الصحف التى كان يصدرها الرجال لم تكن فى نظر أصحاب الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة، كافية للقيام بالدور المطلوب على نحو ما فعلت «الراوى» و «المقطم» و«النيل»، وغير ذلك من الصحف الموالية للاحتلال، الأمر الذى جعل من فتاة لبنانية تصدر أول مجلة نسائية فى مصر وهى مجلة «الفتاة» لهند نوفل وذلك فى عام ١٨٩٢م، ومن قراءة افتتاحية العدد الأول من المجلة يتضح أن هندًا أرادت أن تصنع ما تصنعه غيرها من نساء أوربا حتى تتقدم الحياة النسائية فى مصر وتتشابه مع زميلتها فى الغرب.[٣]

ويتأكد اتجاه المجلة أيضا من العدد الأول عندما تفرد عدة صفحات بعد الافتتاحية مباشرة للإشادة «بجلالة فكتوريًا ملكة انجلترا المعظمة، وهى ملكة المملكة المتحدة فى بريطانيا العظمى وأيرلندا، ومن مهاجريها وملحقاتها فى أوربا وآسيا، وحامية الدين والإيمان وامبراطورية الهند» وكذلك باتخاذها من مظاهر الحياة الانجليزية مصدرًا للاقتباس والاستشهاد والمحاكاة.[٤]

---

(١) مجلة الراوى ظهرت فى أول مايو ١٨٨٨.

(٢) أنظر بالتفصيل سامى عزيز، الصحافة المصرية، مرجع سابق، ص٢٩٦ وما بعدها.

(٣) أنظر بالتفصيل: إجلال خليفة، الحركة النسائية الحديثة، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى ١٩٧٣، القاهرة، ص٣٦.

(٤) سامى عزيز، الصحافة المصرية، مرجع سابق، ص٢٩٨ وما بعدها.

وهكذا نرى أن أول مجلة نسائية فى مصر بل فى الشرق، تولد ولادة غربية وتتجه اتجاها تغريبيا، وتظهر لتؤدى ما عليها من دور نحو تحرير المرأة من الموروث إلى الوافد حتى وإن كان من هذا الموروث قيم وأخلاق ومبادىء هى من صميم الدين الإسلامى، وحتى وإن كان هذا الوافد أعرافاً وأخلاقاً تبعد عن ديننا وعقيدتنا بل وتتصادم معهم.

ولم تتوقف الصحف النسائية ذات الصبغة التغريبية عن الظهور فصدرت بعد مجلة الفتاة، مجلة «أنيس الجليس» لصاحبتها ورئيسة تحريرها «الكسندرة أفرينو» فقد قامت بترجمة الكثير من التقاليد والعادات الحديثة الأوربية عن اللغات الأجنبية، وطلبت من المرأة اكتسابها وقد ظهرت المجلة من ١٨٩٨ حتى ١٩٠٨م.(١)

ثم توالت بعد ذلك أيضا العديد من المجلات النسائية التى تنحو فى توجهها منحى تغريبيا حتى قامت الحرب العالمية الأولى، وكانت فرصة سانحة لاخفات صوت الإسلام وتشريد دعاته فاعتقلت السلطات الانجليزية رجال الحزب الوطنى، وأوعزت إلى بعض أتباعها بإصدار مجلسة «السفور»(٢) التى أخذت على عاتقها الدعوة ضد الحجاب.(٣)

وإزاء تصاعد الدور التغريبى لتحرير المرأة، وذلك عن طريق الصحف التى يصدرها الرجال أو الصحف النسائية التى صدرت بإيعاز من قوى الاحتلال، لم يقف أنصار الاتجاه الإسلامى لتحرير المرأة مكتوفى الأيدى بل راح قاسم أمين يكتب مفنداً تلك الشبهات التى تثار حول المرأة المسلمة، فكتب كتاب «المصريون» يرد فيه على «دوق دراكور» الكاتب الفرنسى الذى تهجم على المصريين وحاول الطعن على الإسلام والمسلمين.(٤)

---

(١) إجلال خليفة، الحركة النسائية الحديثة، مرجع سابق، ص٤٢.

(٢) أصدرها عبد الحميد حمدى أسبوعية عام ١٩١٥م يدعو فيها إلى التخلص من الحجاب، ومن كافة مظاهره.

(٣) راجع بالتفصيل مسلسل المؤامرة علي الأسرة المسلمة فى مصر: سعد الدين السيد صالح، إحذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، الزقازيق، ص٢٣٢ وما بعدها.

(٤) محمد عمارة، قاسم أمين وتحرير المرأة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٣٥.

وكذلك فعل محمد عبده وتلاميذه مثل عبد العزيز جاويش والسيد رشيد رضا وغيرهم، ولكن الذى أعطى هذه القضية أهمية خاصة هو قاسم أمين وهو أحد تلامذة الإمام محمد عبده، فكتب عدة مقالات عن تحرير المرأة نشرها بصحيفة «المؤيد» للشيخ على يوسف ثم جمع هذه المقالات ونشرها فى كتاب أسماه «تحرير المرأة» وذلك عام ١٨٩٩، ولكن هذا الكتاب هاجمه جمع كبير من الكتاب والعلماء، فكتب قاسم أمين كتابه الثانى «المرأة الجديدة» وذلك عام ١٩٠٠م رد فيه على الذين هاجموه، والحقيقة أن ظهور الكتابين أثار ضجة شديدة فى ذلك الوقت وظلا موضع أخذ ورد فى الصحف طوال نصف قرن تقريبا.(١)

ومهما يكن من أمر، فإن موقف ورأى قاسم أمين من تحرير المرأة لم يكن خروجا بحال عن الإسلام بل إن الرجل أعلن ذلك فى كتابه الأول إذ يقول: ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإننى لا أزال أدافع عن الحجاب واعتبره أصلا من أصول الأدب الذى يلزم التمسك به، غير أنى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية.(٢)

والمعروف أن أصل القضية ومحل النزاع بين قاسم أمين ومخالفية كان يتعلق بالدرجة الأولى فى كشف الوجه، إذ إن الوضع الذى كان سائداً وقتئذ، هو أن تغطى المرأة وجهها، وهذا خلاف قديم بين العلماء فمنهم من يرى أن تغطية الوجه هو الأصل والآخرون يرون أن كشف الوجه هو الأصل وبين المدرستين آراء واجتهادات(٣)، والذى حدث أن قاسم أمين اختار الرأى الثانى وهو القول بكشف وجه المرأة، وإن كان هذا الرأى له سنده وأصله الشرعى إلا أنه لم يكن هو المعمول به فى هذه المرحلة، فكانت المرأة إذا خرجت تخرج وهى «منتقبة» وكان هذا الوضع من اللباس تسير عليه الطبقة

---

(١) أنظر بالتفصيل، عرض كامل لكتابى تحرير المرأة والمرأة الجديدة والحملة التى أثيرت ضدهما فى: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، حـ١، مرجع سابق، ص٢٧٣-٢٩١.

(٢) راجع: قاسم أمين، تحرير المرأة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص٦٠ ومابعدها.

(٣) راجع بالتفصيل آراء العلماء حول حكم كشف الوجه للمرأة والأدلة الشرعية لكل فريق فى: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى، القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الشعب، حـ١٥، ص٤٦١٤-٤٦٣١، وأيضا حـ٥٨، ص٥٣٢٢ - ٥٣٢٦.

المتوسطة من الأمة المصرية، وهى تمثل الأغلبية المطلقة، فكان اختيار قاسم أمين فى هذا التوقيت والإعلان به، يمثل خروجًا على ما اجتمعت عليه الأمة، فظهر وكأنه يدعو إلى حكم جديد أو على أنه أتى فى الدين ما ليس منه، والحقيقة أن الأمة كانت معذورة، إذًا، فقاسم أمين بآرائه الجديدة لم يكن خارجًا على الدين، وإنما كان خارجا على أعراف المجتمع، وما استقر عليه الرأى فى القول والعمل فى مسألة لباس المرأة، الأمر الذى جعل الكثير يتهمونه باتهامات عديدة، ولكن الباحث يرى أن قاسم أمين لم يأت فى آرائه بجديد عن الإسلام، بل إن ما ذهب إليه، هو مذهب الكثير من علماء الأمة فى القديم والحديث، وقد سبقه بهذه الآراء من المحدثين الطهطاوى والأفغانى والإمام محمد عبده بل إن البعض من الباحثين يرجع كتابة المسائل الشرعية التى وردت فى كتاب «تحرير المرأة» إلى الإمام محمد عبده.(١)

والحق يقال، إن قاسم أمين لما كتب ما كتب لم يكن يتصور أن الأمر سينتهى إلي ما انتهى إليه، فتخرج المرأة على أخلاق الإسلام وآدابه فى اللباس والعادات والأعراف، وغير ذلك فقد أخذت الأمور تتطور تطوراً سريعًا حتى أصبحت دعوة قاسم أمين وقد استنفدت فى وقت وجيز كل أغراضها، واندفع الناس إلى ما وراءها فى سرعة غير منتظرة، فقد خلعت المرأة النقاب، ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب فى الذيول وفى الأكمام وفى الجيوب، ولم يزل يجور عليها فضيقها على صاحبتها حتى أصبحت كبعض جلدها، ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطىء البحر فى المصايف بما لا يكاد يستر شيئا.(٢)

التيار التغريبى وتحرير المرأة:

وهكذا فلم تثمر دعوة قاسم أمين ثمارها المرجوة، ولكن الذى حدث أن دعاة الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة تلقفوا دعوة قاسم أمين واستندو إليها فى دعوتهم، فانحرفوا بها عن وجهتها، ساعدهم على ذلك الاحتلال البغيض الذى كان له اليد الطولى فى تقوية شوكة هذا التيار التغريبى، وبدلا من أن يستفيد أصحاب الاتجاه الإسلامى فى تحرير

(١) راجع بالتفصيل سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٨، ٢٦٠.
(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ٢، مرجع سابق ص٢٣٧.

المرأة من دعوة قاسم أمين، انقسموا على أنفسهم واختلفوا فيما بينهم ما بين مؤيد ومعارض لهذه الدعوة، وكان من نتيجة هذا الخلاف وذلك الانقسام أن خسروا الجولة، وضاعت جهودهم وخفت صوتهم، وعلا صوت المتغربين حتى جاءت ثورة ١٩١٩، وخرجت المرأة فى المظاهرات تندد بالاحتلال وتطالب بالاستقلال، واستشهدت بعض النساء خلال المظاهرات، ومن الثابت أن المرأة عندما شاركت في المظاهرات كانت محجبة، ترتدى البرقع ولاتختلط بالرجال(١).

ولكن هذه الصورة التى ظهرت بها المرأة فى المسيرات والمظاهرات إبان ثورة ١٩١٩ لم تستمر طويلا، فقد تم تغيير مسيرة المرأة عن الوجهة والراية التى كان يرفعها من قبل مصطفى كامل ومحمد فريد ورجال الحزب الوطنى حتى قبيل ١٩١٩م، ولا غرابة فى ذلك، لأن الأمر كان على ما أبانه أنور الجندى إذ يقول: «ولما كان النفوذ الاستعمارى يريد تثبيت إقامته وتركيز دعائمه فقد عجز عن التفاهم مع هؤلاء المؤمنين الصادقين بربهم ودينهم وأوطانهم وقاومهم شر مقاومة وعمل على تحطيمهم وتدميرهم، إما بالسجن أو النفى أو الإبادة وأخذ فى نفس الوقت فى بناء زعامات جديدة داخل نطاق دائرة نفوذه، زعامات تؤمن به وتستجيب له، وتلتقى به في منتصف الطريق وتتحرك فى إطار مفاهيمه أساسًا، ولا بأس أن تختلف معه خلافا ظاهرًا، مادامت هذه الزعامات تؤمن بوجوده وتتعامل معه، وتقبل سلطانه وتقر بتنفيذ قانونه الوضعى ونظامه السياسى وتخضع لمندوبيه، وتنفذ نصائحه باعتبارها أوامر. هذه النبتة المسمومة التى صنعها النفوذ الاستعمارى فى أرض الإسلام، إنما كان يعدها لتحكم هذه الأقطار طويلا، ولذلك فقد اختارها بعناية ورباها ومنحها القدرة على أن تكسب إعجاب الجماهير بالخلاف الفرعى معه، ولكنها كانت فى مجموعها من صنع يده، وصاحبه ولاء أكيد له.(٢)

ولكن الذى حدث بعد انتهاء الثورة وعودة سعد زغلول من منفاه، وقد أقيم له حفل بعد عودته حيث بدأ خطابه فيه بقوله: سادتى، وأرجو أن أبدأ خطابى فى حفل قريب بقول: سيداتى، فلما كان الاجتماع الثانى حضر بعض النسوة محجبات، فامتدت يده

---

(١) محمد فهمى عبد الوهاب، الحركات النسائية فى الشرق، وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٩، ص٢٢.

(٢) أنور الجندى، عقبات فى طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٦٠. ٦١.

إلى نقاب امرأة قريبة منه فى سرادق النساء ونزعه عن وجهها وأبى أن يخطب إلا إذ سفرن جميعًا.(١)

ولاشك أن الخطوة التى خطاها سعد زغلول لم تقف عند حد السفور الذى طالب به النسوة، ولكن الأحداث والأحوال أخذت تتطور تطوراً سريعا على نحو ما بينت فى الأسطر الماضية، وبدأ النساء يشكلن اللجان ويعقدن المؤتمرات ويشاركن فى الأعمال السياسية، فتألفت لجنة للسيدات الوفديات، شاركت مشاركة فعالة فى حركة المقاطعة الاقتصادية ١٩٢٢، وقفزت زعيمة النساء صفية زغلول بالمرأة إلى وضع لم يكن يحلم به قاسم أمين أن تبلغه فى هذه المدة الوجيزة.(٢)

وهكذا انحرف أنصار الاتجاه التغريبى بقضية المرأة. عن الاتجاه والهدف الذى أعلنوه من البداية، وهو أن تتعلم المرأة وأن تسفر عن وجهها، وأن تنال حقوقها، إلى غير ذلك مما ظلوا يرددونه طويلا، ولكن ما إن أفلت الزمام، وخلعت المرأج الحجاب، فكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تغريب المرأة وإخراجها عن قيمها وأخلاقها ومبادئها فبدلاً من أن تتعلم المرأة فقط، نراها تعلمت وتتحررت وتبذلت، حتى وصل حال المرأة العربية إلى حد لا يمكن أنه جال فى خاطر من طالبوا فى بدايات القرن العشرين بتحررها من العادات والتقاليد المنفافية للإسلام والإنسانية، ونادوا بتعليمها وتثقيفها وتهذيبها، حقاً، ما أسرع الهدم !! وما أسهل التدمير!!(٣)

ولقد ظلت قضية تحرير المرأة تراقبها أعين المحافظين والفيورين على الدين والوطن بل وترعاها وتساندها وتدعو إليها فى إطار الإسلام وشريعته، حتى جاءت ثورة ١٩١٩ وخفت صوت التيار الرسلامى الوطنى، وتسلم قيادة الثورة من يعلن ولاءه للوطنية، ويرفع راية العلمانية، ويحجم دور الدين فى الحياة، فعلا حينئذ صوت التيار التغريبى فى تحرير المرأة، والذى كان يتزعمه من النساء صفية زغلول حرم سعد زغلول وهدى

---

(١) راجع بالتفصيل: عطية صقر، موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، جـ٢، مرجع سابق ص ٢٥٤، ٢٤٥.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ٢، مرجع سابق، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٣) راجع بالتفصيل أنور الجندى، المرأة المسلمة فى وجه التحديات، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٩، صـ ٣-٨.

شعراوى، وتساندهم الصحافة التغريبية الموالية للاحتلال، ولم تستطع صيحات المحافظين أن تقف فى وجه ذلك التيار الجارف، بل لم تستطع أن تقلل من حدته أو تخفف من سرعته، لأن المسألة لم تكن منحصرة فى السفور، ولا هى مجرد أن تعطى المرأة المسلمة حريتها فى الذهاب والمجئ كيفما تشاء، بل هى سلسلة طويلة متصلة حلقاتها، بعضها يبعض أولها السفور وآخرها التدمير(١)

وفى عام ١٩٢٣ م بدأت حركة تحرير المرأة خطوة جديدة نحو تأكيد هويتها وتثبيت أقدامها، إذ تم إنشاء الاتحاد النسائي المصرى برياسة هدى شعراوى، واستجابت المرأة لدعوة حضور المؤتمر النسائى فى روما، وسافر وفد نسائى ترأسه هدى شعراوى ورجع النساء من المؤتمر رافعات الحجاب، ومنذ ذلك التاريخ أخذت قضية تحرير المرأة تأخذ شكلا أكثر سرعة وتطوراً، ومما شجعها على ذلك الدعايات الأجنبية الكاذبة، ورمى المرأة المصرية بخاصة والشرقية بعامة بالجمود ، ولصق أسباب تأخرها بالإسلام، وكانت هذه الدعايات مرتبة ومقصودة من الهيئات والجماعات التى تخدم الاستعمار فى مصر وفى خارج مصر، لأن الانحلال الأخلاقى من أهم الدعائم التى يثبت عليها الاستعمار بناءه(٢)

ولقد غفلت أعين المحافظين عن هذه الخطوات الجريئة للمرأة نحو التبرج والسفور، والتى أضفت الثورة عليها لونا من النبل تحفظها من أن تهاجم أو تمس، بل أضفت عليها لونا من ألوان البطولة الزائفة، فتخفى ما وراءها من أعمال ومواقف هى تدمير وتخريب وهدم لكيان المرأة المسلمة، وإلا فما تفسير أن تخلع المتظاهرات الحجاب ويلقين به على الأرض ويسكبن عليه البترول ويشعلن فيه النار؟(٣)

ولكن هذا هو الذى حدث، ووقف أنصار الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة يذكون هذه الخطوات ويباركونها ويدافعون عنها، وكان لتحول تركيا عن الإسلام إلى العلمانية، وإلغائها الخلافة الإسلامية أثره البالغ فى تطور قضية المرأة، إذ حرم أتاتورك الحجاب

(١) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية، جـ ٢ ، مرجع سابق ، صـ ٢٤٧.

(٢) سعد الدين محمد الجنزاوى ، العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث، من ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ، ١٩٦٤، صـ ١٤٣.

(٣) أنظر قضية تحرير المرأة بالتفصيل: محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠، ص٢٥٠ - ٢٩٥.

على المرأة، وبدأت الصحف المصرية التغريبية والموالية للاحتلال تشيد بما فعله أتاتورك، وتشيد بالتطور الاجتماعي الذى حدث للمرأة التركية من سفور وتبرج وغير ذلك، وليت الأمر وقف عند السفور، بل إننا نرى كاتبا يعلن صراحة بأننا لم نخط بعد الخطوة الحاسمة فى سبيل تطبيق روح الحضارة العصرية على عاداتنا وأخلاقنا وأساليب حياتنا، إن نساءنا العصريات المتعلمات اللواتى يطالعن الصحف ويقرأن القصص ويغشين المسارح ودور السينما ما يزال يحال بينهن وبين الظهور فى المجتمعات البيئية أمام رجل غريب فنحن سلمنا بمبدأ تعليم نسائنا، ولكنا لم نسلم بعد بقدرة هولاء النساء على الانتظام فى حفل كبير يضم عددًا مختارًا من أفراد الجنسين ويتألف منه مجتمع مصرى أشبه بالمجتمعات الأوربية التى نشاهدها فى مصر ونحسد الأجانب عليها.(١)

وهكذا، نرى أن حركة تحرير المرأة وصلت فى نهاية المطاف إلى أن يتولى أمرها، ويقود مسارها من ينتمون إلي التيار التغريبى، وإلى فريق من السيدات استطاع المستعمر أن يحركهن ليؤدين دورهن باتقان، وهل كان فى النساء أفضل من صفية زغلول حرم سعد زغلول وهدى شعراوى زوجة على شعراوى وسيزا نبراوى وغيرهن من النساء اللاتى تربين وتعذين على الثقافة الغربية، وأصبحت الجمعيات والاتحادات النسائية التى تم تشكيلها فى البلاد يقودها هذا الفريق من النساء، وخلت الساحة لهذا التيار، فلم يعد لأصحاب الاتجاه الإسلامى صوت يسمع وليس ثمة جمعية أو اتحاد يتولى شئون المرأة، من مفهوم ومنظور إسلامى، ولذلك كان ولابد من قيام تجمعات وهيئات تنطلق من المنطلق الإسلامى، وترتكز على الفهم الصحيح للإسلام لتصحح المسار، وتواجه هذا التيار التغريبى العاتـــى، الذى أصبح هو الصوت الوحيد الذى يقود تيار المرأة ويعبر عنها ويوجهها الوجهة التى يريدها.

صحيح أن مجلة المنار ظلت تنافح وتدافع عن المرأة من المنظور الإسلامى، وتحذر دعاة التغريب من أن ينحدروا بالمرأة المسلمة إلى هوة سحيقة من التبعية للغرب فى العادات والتقاليد والقيم والمبادىء، ولكن من يسمع للمنار؟ وماذا تفعل المنار وحدها في مواجهة الاتحادات والهيئات والجمعيات والصحف والمجلات؟!

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ ٢، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

تحرير المرأة ورد الفعل:

إذًا، كان ولابد من أن تظهر جمعية أو هيئة تدافع عن المرأة باسم الإسلام، وتردها إلى صوابها ورشدها، فكانت دعوة الإخوان المسلمين التى ظهرت فى عام ١٩٢٨ فى مدينة الاسماعيلية دعوة إسلامية شاملة تهتم بالمرأة كما تهتم بالرجل على حد سواء، ولم تقف دعوة الإخوان فى حركتها ونشاطها الخاص بالمرأة المسلمة عند حد الكلمات الوعظية أو الخطب المنبرية، بل راحت تفتح لها المدارس وتؤسس لها الجمعيات حتى تستطيع هذه الدعوة أن توقف هذا التيار التغريبى الذى اكتسح البلاد طولا وعرضا، وترد المرأة المسلمة إلى أصالتها وجنورها وتمنحها حقوقها التى أعطاها لها الإسلام من الحرية الصحيحة والتعليم النافع، والثقافة الإنسانية الرفيعة، فضلا عن حقوقها المادية والمالية والأدبية.(١)

ولذلك فلم تمر خمس سنوات على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين حتى تم تأليف فرقة الأخوات المسلمات وذلك فى غرة المحرم سنة ١٣٥٢، ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٣ بمدينة الاسماعيلية، وكان الغرض من تكوين هذه الفرقة هو: التمسك بالآداب الإسلامية، والدعوة إلى الفضيلة، وبيان أضرار الخرافات الشائعة بين المسلمات.(٢)

وإيمانا من الجماعة بدور المرأة فى بناء الأسرة المسلمة، وضرورة تعليمها وتثقيفها وتهذيبها، وحتى يتم ترجمة أهدافها واقعيا وعمليا أنشأت الجماعة فى ١٩٣٣م أيضا مدرسة للبنات أطلق عليها اسم «مدرسة أمهات المؤمنين» ووضع لها منهاج عصرى

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول حقوق المرأة فى الإسلام، أنظر: البهى الخولى، الإسلام والمرأة المعاصرة، دار القلم، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤، ص٢٠١ وما بعدها وأيضا: محمد رشيد رضا، نداء للجنس اللطيف فى حقوق النساء فى الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدى، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢، ص٢١ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول لائحة فرقة الأخوات المسلمات ووسائلها ونظامها أنظر: حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص١٥٠-١٥١ وأيضا: أحمد ربيع خلف الله، الفكر التربوى وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص١٩٠، ١٩١.

إسلامى يجمع بين أدب الإسلام وتوجيهه السامى للفتيات والأمهات والزوجات وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية والعلمية، وكان يقوم بالتدريس فى هذه المدرسة مدرسات متخصصات من أبناء الاسماعيلية.(١)

وبذلك تكون جماعة الإخوان المسلمين سدت ثغرة كبيرة فى حياة الأمة وغطت فجوة هائلة فى البناء الاجتماعى فى حياتنا المعاصرة.(٢) فبعد أن كنا لانرى ولانسمع إلا من يدعو المرأة إلى التبرج والسفور وإلى والتحلل والاختلاط وإلى الجرى وراء البدع والخرافات والعادات والتقاليد الغربية، رأينا جماعة تبنى المدراس لتعليم الفتيات ما ينفعهن من الدين والحياة، وجمعيات تدعو المرأة إلى التمسك بآداب الإسلام، ولاشك أن ذلك أحدث تغييراً فى المجتمع وأضعف المد التغريبى لتحرير المرأة وأحدث ما يمكن أن يسمى بتوازن القوى فى الأمة، ويمكن القول إن هذه الحركة أول حركة نسوية -على حد تعبير الدكتور اسحاق الحسينى - فى مصر قامت على أساس متين بهدف إلى تحرير المرأة تحريراً حقيقيا، يعطيها كل حقوقها، ويرتقى بملكاتها ويهذب كل مواهبها، ويربيها على أسمى ما أعرفت الإنسانية من مبادىء الشرف والفضيلة والعفاف.(٣)

ولايعنى هذا الاهتمام من دعوة الإخوان المسلمين بالمرأة أنهم كانوا وحدهم الذين يعملون فى هذا الميدان، ولكن كان قد ظهرت دعوة الشبان المسلمين وغير ذلك من الجمعيات والصحف الإسلامية التى أولت هذه القضية جزءا من اهتمامها.

---

(١) حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، المرجع السابق، ص١٠٧، ١٠٨. وأيضا: زكريا سلمان بيومى، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص١٩٢ وما بعدها.

(٢) زكريا سليمان بيومى، الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية، دار أسامة، القاهرة، ١٩٨١ ص٢٣.

(٣) إسحاق الحسينى، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص٩٠.